الحج والسياسية
لدى سلاطين الدولة العثمانية

منـذ فجر الإسلام ارتبطـت مكانة الحاكم بشرعية أدائه للشـعائر الكبرى، وعلى رأسها الحج إلى بيت الله الحرام، غير أنّ السلاطين العثمانيين تفرّدوا بترك هذه الفريضة رغـم قدرتهم، مكتفين بإظهار عناية سياسـية بالحرمين دون ممارسـة فعليـة للشـعيرة، فما الـذي دفـع السلاطين العثمانيين إلى تجنّب الحج إلى مكة المكرمة؟ وما الذي دفع أكثر من سـتة وثلاثين سلطانًا إلى عدم أداء أحد أركان الإسلام الخمسة مع قدرتهم واستطاعتهم على الحج؟ خاصةً وأن الخلفاء العرب حجّوا قبلهم إلى مكة، ولم يُمنع منهـم أحد. بل لقد كان الحج أُمنية الأماني لعامة المسـلمين وتجارهم وحكامهم، يبذلون الغالي والنفيس في سبيله.

> سـليمان القانونـي قـدَّم ضريحـه علـى الكعبـة المشرفة

يقـول كمال كاريات في كتابه تسـييس الإسلام: إعادة بناء الهوية والدولـة والدين والأمة في الدولة العثمانية: "وكما هو حـال بقية السلاطين العثمانيين، لم يؤدِّ عبدالحميد فريضة الحج مطلقًا مع كونها فريضة مرة على الأقل في العمر لمن اسـتطاع إليها سـبيلًا، بيد أنـه انضم إلى اثنتين من الأخويات الصوفية الشعبية.. إلا أنه لم ينضم إلى النخبة المولوية التي حبّذ كثيرون من أسلافه وأخيه مراد الانتماء إليها".

فهـل أعطت الطرق الصوفية السلاطين رخصةً لترك الحج؟ خاصة وأن بعض الطرق تسـقط العبادات عن معتنقيها، وتجعلهم في طبقة أعلى من البشـر كمـا يدّعون. وهو أمر ليس بالجديد، إذ كثير من الطرق منحت قادتها أو بعض مقلديها المخلصين تلك الرخصة، ولا شك أن الحج كان منها. ولأن السلاطيـن العثمانيين كانوا من أكثر المؤيدين للطرق الصوفيـة، وخاصةً المتطرفة منها مثل البكتاشية وغيرها، فمن غير المستبعد أن يكون ذلك جزءًا من مبرراتهم لعدم الحج.

أما ما يُدعى من حرص السلاطين العثمانيين على الحرمين الشريفين، وانطلاقًا من مكانتهما في الشـعائر الإسلامية، كقبلة للصلاة ومقصد للحج، فقد كان حرصًا سياسـيًا فقط، لإضفاء الشرعية على احتلالهم للبلاد الإسلامية بعد إسـقاطهم للخلافة العباسية في مصر، والتي كانت مظلةً لحكم المماليـك. خاصةً أنه لم تكن لهم ميزة تمنحهم حق حكم الحرمين الشـريفين وسـائر الشـعوب الإسلامية.

ومن هنا يثور سـؤال آخر: هل أراد العثمانيون تحويل القبلة من مكة المكرمة إلى إسطنبول؟ وإلا فلماذا قام السلطان سليمان القانوني بالاستيلاء على الأحجار القليلة المتبقية من الحجر الأسود ونقلها إلى إسـطنبول؟ خصوصًا أن من المعلوم أن الحجر الأسود، وبسبب اعتداءات البغاة من أمثال "القرامطة"، كان هدفًا لمحاولات نقل التعبّد من الكعبة ومكة المكرمة إلى أماكن أخرى.

لقد استخدم السلطان سـليمان القانوني نفوذه وسلطته ليستحوذ على ما تبقى من الحجر الأسـود، مفضّلًا إسـطنبول على مكة، وضريحه على الكعبة المشـرفة. وقد جرى توزيع تلك القطع، فوُضِع بعضها في جامع "صقلي محمد باشـا" في إسـطنبول؛ إذ كانت القطع التي نُزعت من الحجر الأسـود عدة شـظايا. جرى تثبيت أربع منها على المحراب والمنبر والقبة وعنـد الباب، بينما وُضعت القطعة الخامسة والأكبر فوق ضريح السلطان سليمان القانوني.

يذكر علي السـنجاري في كتابه منائح الكرم أن السـلطان مراد الرابع سـنة (1040هـ) أرسـل المعمـاري التركي رضوان لإصلاح ما تهدّم من الكعبة المشـرفة بعد أن تعرضت لأضرار. وحين وصل المعماري إلى الكعبة وجد الحجر الأسود قد تشظى إلى عدة قطع، وتفككت أجزاؤه، بحيث كان بإمكان أي أحد أن يأخذ منها ما يشاء. ولعل هذا السؤال تدعمه حقيقة أنه لم يكن هناك خطر يتهدد الكعبة أو الحجر الأسـود في عهد السلطان سليمان القانوني، مما يرجّح أن الأنانية وتفضيل الذات، أو النظر إلى الكعبة باعتبارها من ممتلكاتهم الخاصة، قد يفسّر ذلك السلوك.

بـل إن الموقف من الحج انتقل من السلاطين إلى الأمراء الأقل رتبة في هرم الحكم العثماني. إذ يقـول منيـر أطالار في كتابه الصـرة الهمايونية ومواكـب الصرة: "لم يذهب أحـد من السلاطين العثمانيين قط لأداء فريضة الحج، حتى السـلطان سـليم الأول – الذي فتح مصر – لم يذهب للحج، بالرغم من قربه من الديار المقدسـة. أما بقية الأمراء فلم يحج أحد منهم سـوى الأمير (جم). أما بقية الأمراء، فلم يُعرف أن أحدًا منهم قد حج".

المراجع:

1.علي السـنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 1998).

2.منيـر أطالار، الصرّة الهمايونية ومواكـب الصرة، ترجمة: محمد حرب (القاهرة: مركز التاريخ العربي، 2023).